

للمؤدب والتاريخ -

## مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للاستاذ محمد سعيد العريان

- ٤ -

## شاعر الحس

كف الرافعي بالشعر من أول نشأته ، فما كان له هوى إلا أن يكون شاعراً كبعض من يعرف من شعراء العربية ، أو خيراً ممن يعرف من شعراء العربية ... كان الرافعي واسع الأمل ، كبير الثقة ، عظيم الطموح ، كثير الاعتداد بالنفس ؛ فنم نشأ جباراً عريض الدعوى طويل اللسان من أول يوم ... وبهذه الكبرياء الأدبية الطاغية ، وبما فيه من الاستعداد الأدبي الكبير ، وبما في أعصابه من دقة الحس وسرعة الاستجابة لما تفعل به - بكل أولئك تهباً الرافعي لأن يكون كما أراد أن يكون ، وأن يبلغ بنفسه هذا المكان بين أدياء العربية

وإذا كان الرافعي قد بدأ شاعراً كما أراد ، فما كانت له خيرة في المذهب الذي آل إليه من بعد ، ولكنها نوازع الوراثة ، وعوامل البيئة ، ودوافع الحياة التي كانت تضطرب به وتذهب به مذهبها

لم يكن الرافعي يقدر في أيام نشأته الأولى أنه سينتهي من الأدب إلى هذه الغاية ، وأن الحياة سترده من الهدف الذي يسمي إليه في مملكة الشعر إلى هذا الهدف الذي انتهى إليه في ديوان الأدب والإنشاء . وما كان أحد من خاصته وأصدقائه ليعرف أن الرافعي الشاعر الشاب الذي توزعت الصباية ، وفتنته الحياة ، وتقاسمت لذات الصبا ، وتمناه الهوى ، وتصباه الحب والشعر والشباب - سيكون مكانه في غده هذا المكان في الدفاع عن الدين والدود عن العربية والصيل في سبيل الله . وما كان هو يأمل في مستقبله إلا أن يكون شاعراً تسير إليه في إماره الشعر

منزلة تحمل ذكر فلان وفلان من شعراء عصره

ومضى الرافعي يسعي إلى غايته في الشعر ، وقد تزود زاده من الأدب القديم ، ووعى ما وعى من تراث شعراء العربية . وكان أمامه مثلاً من شعراء عصره يمتد إليهما طرفه ويتعلق بهما أمله : هما البارودي وحافظ ؛ أما أولهما فكانت له زعامة الشعر ، على مفرقه تاجه وفي يده صولجانه ، قد قوى واستحصد واستوي على عرشه بعد جهاد السنين ومكابدة الأيام ؛ وأما الثاني فكان في الشباب والحداثة ، وكان جديداً في السوق ، قد فتنته الشهرة وفتنت به من حوله ؛ فأخذ الرافعي ينظر إليه وإلى نفسه ، ويوازن بين حال وحال ، ويقايس بين شعر وشعر ؛ فقرر في نفسه أنه هو وهو ، وأنهما في منزلة سواء ، وأنه مستطيع أن يبلغ مبلغه ويصير إلى مكانه إذا أراد ؛ فسار على سنته وجرى في ميدانه ، لا يكاد حافظ يقول : أنا ... حتى يقول الرافعي : أنا وأنت ... وما فاته أن حافظاً يغالبه بالشهرة السابقة ، ويطاوله بالجاه والأنصار ، ويفاخره بمكانه من الأستاذ الإمام ، وبمزلته عند البارودي زعيم الشعراء ، وبمخطوئه عند الشعب ؛ فراح الرافعي يستكمل أسباب الكفاح ويستتم النقص ؛ فأكد صلته بالبارودي ، وعقد أصره بينه وبين الأستاذ الإمام ، ومضى يتحدث في المجالس ، وينشر في الصحف ، ويذيع اسمه بين الناس . وانتهز نهضة فذهب يستطيل بأنه (شاعر الحسن) وبأن حافظاً لا يقول في الغزل والنسيب ... !

كانت المناقسة بينه وبين حافظ مناقسة مؤدبة كريمة ، لم تعكر ما بينهما من صفو المودات ، ولم تجن على صداقتهما القوية ، فظل الرافعي وحافظ صديقين حميمين ، منذ تمارفا في سنة ١٩٠٠ إلى أن قضى حافظ رحمه الله في سنة ١٩٣٢

ليس من همي أن أحدث عن شعر الشاعرين ، أو أقيس بين فن وفن وشاعرية وشاعرية ، فقد يبدو لي هنا بمد ما بين المزلتين في الموازنة بين الرافعي وحافظ في الشعر ؛ وما يهمني في هذا الحديث إلا إثبات الصلة بين الرجلين ؛ فمن أراد شيئاً وراء هذا فسيجد نيا أثبتته هنا مقدمات البحث وهيكل البناء .

\*\*\*

في إبان هذه المرحلة الصامتة بين الرافعي وحافظ ، قدم إلى مصر شاعر كبير لم يكن الرافعي يعرفه أو يسمع به أو قرأ شيئاً

وما سمعت منه - رحمه الله - حديثاً يشعر أن صلة خاصة كانت تربطه بواحد منهم في حديثه ؛ فلعل عند غيري من أهل الأدب 'علما من العلم يكمل هذا النقص ويسد هذه الخلة ، فليتفضل من يعرف بنشر علمه مشكوراً على وفائه للأدب والتاريخ .

\*\*\*

بدأ الراجي يقول الشعر ولما يبلغ العشرين من عمره ، ينشره في الصحف وفي المجلات السورية التي تصدر في مصر ، وكانت المجلات الأدبية كلها إلى ذلك الوقت في أيدي السوريين ؛ فمجلة الضياء ، والبيان ، والثريا ، والزهر ، والمقتطف ، وسركيس ، والهلل ، وغيرها = كان يقوم عليها كلها جماعة من أدباء سورية : كالبيستاني ، واليازي ، وصرور ، وجورج زيدان ، وسليم سر كيس وغيرهم ؛ وكانت إليهم الزعامة الأدبية في اللغة والأدب الرصني والتاريخ ، أما أدب الانشاء فكان قسمة بينهم وبين أدباء مصر .

والآن أدع لصديق الأديب الأستاذ جورج إبراهيم حنا ، أن يتحدث عن الراجي في أول عهده بالشعر ؛ قال :

« بدأت صلتى بالرحوم الراجي قريباً من سنة ١٩٠٠ ؛ كنت يومئذ أقول الشعر ، وكان اسمي معروفاً لقراء مجلة الثريا ، ولم أكن أعرف الراجي أو أسمع به ، وكان لأخيه الوحيد سميد افندي الراجي متجر في شارع الخان بطنطا ، يستورد إليه النقل والفواكه الجافة من الشام ، وكنت زبوناً ، فذهبت إليه يوماً اشتري شيئاً من فاكهة الشام ، إذ كان له بها شهرة وكان بي إليها شوق ؛ فلما صرت إليه ، لقيت هناك فتى نحيلاً في العشرين من عمره ، يلبس جلباباً ، جالساً إلى مكتب في المتجر قريب من الباب ، فما رأيت الفتى حتى ناداني ودعاني إلى الجلوس ، ثم قال لي : أتعرف أي شاعر ؟ قلت : لا ؛ لست أعرف . قال : أنا مصطفى صادق الراجي ، وهذه الكراسات كلها من شعري . وعرض علي بضعة دفاتر كانت على المكتب ، ثم استأنف قائلاً : ولكنه شعر الخدانة فهو لا يعجبني ؛ سأختار أجوده وأمزيق الباقي ، وسأطبع ديواني بعد قليل فتمرفني . . . ! »

قال : « وعرفت الراجي من يومئذ ، وقويت بيننا الصلة حتى صرت أدنى أصدقائه إليه : يقرأ علي شعره ، ويستمع إلى رأيي

شعره ، ذلك هو شاعر العراق الكبير المرحوم عبد المحسن الكاظمي ، ونشرت له الصحف غداة مقدمه قصيدة عينية من الطويل (١) ، قرأها الراجي فاستجدها ورأى فيها فنا ليس ، فن الشعراء المعاصرين الذين قرأ لهم ، فلكت نفسه وبلغت ، مبلغا ، فقرر لساعته أن يسمى إلى التعرف به ، ليصل به حبله ، تتبس من أدبه ، وكان الراجي يومئذ كاتباً بحكمة طليخاً ، راق عمله بغير إجازة ، وسعى إلى لقاء الكاظمي في القاهرة ، يوحي نفسه بأن يكون بينهما من الود ما يرفع من شأن الراجي يدي علي أدبه . وكان في الكاظمي - رحمه الله - أنفة كبرياء ، فأبى علي الراجي أن يلقاه ورده رداً غير جميل ، إذ كان الراجي يومئذ نكرة في الأدباء ، وكان الكاظمي ما كان في علمه به وشهرته وكبريائه ، مع خلته وفقره . واصطدمت كبرياء برياء ، وثار دم الراجي وغلي غليانه ، فذهب من فورهِ فأنشأ لهُ (أو قصيدة ، لا أذكر) نال فيها من الكاظمي ما استطاع يتال بذمه والثرابة عليه والنض من مكاتته ؛ وما كان الراجي مبتاعاً بكتب ، ولكنه قصد أن يلفت الشاعر إليه بالانذار تخويف ، بعد ما عجز أن يبلغ إليه بالزلفي والكرامة .

وفعلت هذه الكلمة فعلها في التقريب بين الأديبين ، فاتصل فمي بالكاظمي وصفا ما بينهما وأخلصا في الوداد والحب حتى كمن بينهما حجاب ، وحتى صار الراجي أصنى أصفياء الكاظمي ، بار الكاظمي أشعر الشعراء المعاصرين عند الراجي ، ثم ارتفعت لهُ بينهما عما يكون بين التلميذ والأستاذ ، وتصادقا صداقة لراء ؛ حتى إنه لما هم الكاظمي أن يسافر إلى الأندلس في سنة ١٩٠٥ كتب كتاباً إلى الراجي يقول فيه : « . . . ثق أي فر مطمئنا وأنت بقيتي في مصر . . . »

هؤلاء الثلاثة : البارودي ، وحافظ ، والكاظمي ، هم كل أعرف ممن تأثر بهم الراجي من شعراء عصره . أما شوق ، بري ، ومطران ، وغيرهم ممن نشأوا مع الراجي في جبل واحد أعرف بينه وبين أحد منهم صلة تمتد إلى أيامه الأولى ؛

(١) أحب عند صديق الأستاذ محمود شاكر علماً من هذه النصة أدق روت هنا ، فانما أتيها من الذاكرة كما حكاه لي المرحوم الراجي منذ رات أربع لثانية قصيدة قرأها معاً في مجلة أبولو من نظم الآسة رباب كاشفي ؛ فإن كان عد صديق تمصيل أو إمتاع فليتفضل بنشره .

فيه ، ويستشيرني في أمره . وقد كان أوله كآخرة ، فالبثت حتى أعجبت به وأحلتته من نفسي أرفع محل من الحب والتقدير »

\*\*\*

ظل الرافي يقول الشعر لنفسه ، أو ينشر منه في المجلات الأدبية ، أو يقرؤه على أصدقائه . وأصدقاؤه يومئذ صفة من شباب السوريين في طنطا : منهم الأديب جورج ابراهيم ، والصيدلي إلياس عجمان ، والطبيب تودري ، وكانوا يتخذون مجلسهم عادة في وقت الفراغ ، في صيدلية ( كوكب الشرق ) بطنطا

فلما كانت سنة ١٩٠٣ ، وعمر الرافي يومئذ ثلاث وعشرون سنة ، نشر حافظ بك ابراهيم ديوانه ، وقدم له بمقدمة بليغة كانت حديث الأديب في حينها وطال حولها الجدل حتى نسبها بعضهم إلى الموليحي . واستقبل الأديب ديوان حافظ ومقدمة ديوانه استقبالا رائعا ، وعقدوا له أكايل التناء . والرافي غير شمرس ، فما هو إلا أن رأى ما رأى ، فمقد العزم على إصدار الجزء الأول من ديوانه ، وما دام حافظ قد صدر ديوانه بهذه المقدمة البليغة التي أحدثت كل هذا الدوى بين أديب الجيل فان على الرافي أن يحاول جهده ليلغ بديوانه ما بلغ حافظ ، وإن عليه أن يحمل الأديب على أن ينسوا بمقدمته مقدمة ديوان حافظ وصدر الجزء الأول من ديوان الرافي في الموعد الذي أراد بُمَيْدَ ديوان حافظ بقليل ، وقدم له بمقدمة بارعة فصل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته ، وهي وإن كانت أول ما نرف مما كتب الرافي ، تدل بمعناها ومبناها على أن ذلك الشاب النحيل الضاوي الجسد ، كان يعرف أين موضعه بين أديب العربية في غد . وإذا كانت مقدمة ديوان حافظ قد نار حولها من الجدل ما حمل بعض الأديب على نسبتها إلى الموليحي ، فقد حملت هذه المقدمة الأديب الناقد الكبير الشيخ ابراهيم اليازجي على الشك في أن يكون كاتبها من ذلك العصر ، مما يخادع نفسه في قدرة الرافي على كتابتها .

قال الأستاذ جورج ابراهيم :

« لاهم الرافي أن يكتب مقدمة ديوانه ، جاء إلى في جليابه والحر شديد ، فخذني من حديثه ، ثم سألتني أن أهني له مكاناً رطباً يجلس فيه ليكتب المقدمة ، فجلس في غرفة من ائدار ،

ثم تخفف من لباسه . . واقعد البلاط بلا فرش ، وبسط أوراقه على الأرض وسبياً للكتابة ؛ فخذرته أن تنال منه رطوبة البلاط في مجله الطويل . فقال : لا عليك يا جورج ؛ إني لأحب أن أحس الرطوبة من تحتي . . . فينشط رأسي . . . ثم استمر في مجله يكتب وليس معه ولا حواليه من وسائل العلم إلا قلمه وأوراقه ، حتى فرغ من المقدمة في ساعات . . .

قال : « فلما تم طبع الديوان أهدى نسخة منه فيما أهدى إلى العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي ، والشيخ اليازجي يومئذ أديب العصر وأبلغ منشيء في العالم العربي . وكان الرافي حريصاً على أن يسمع رأي الأستاذ اليازجي في شعره وأدبه ، ومضى زمان ولم يكتب اليازجي ، على حين تناولت كل الصحف والمجلات ديوان الرافي ومقدمته بالنقد أو التقرير ، واحتفل به المؤيد احتفالا كبيراً فنشر مقدمته في صدره ، والمؤيد يومئذ جريدة العالم العربي كله .

قال : « واستعجبت أن يهمل أستاذنا اليازجي هذا الديوان فلا يكتب عنه ، واعتم الرافي لذلك غمماً شديداً ؛ إذ كان كل ما يكتب الأديب في النقد لا يعني عن كلمة يقولها اليازجي . فذهبت أسأله ، فقال لي : أنت على ثقة أن هذه المقدمة من إنشاء الرافي ؟ قلت : هو كتبها بعيني فاشك في ذلك . قال اليازجي : وأنا ما أبطأت في الكتابة عن الديوان إلا من الشك في قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هذه المقدمة ؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها في مظانها من كتب العربية . . . قلت : يامسيدي ، إنه ليس بشيخ ، إنه فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين . . . »

وكتب اليازجي بعد ذلك في عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء في تقرير الجزء الأول من ديوان الرافي ما يأتي :

« . . . وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهباً عزيزاً في البلاغة ، وتبسط ما شاء في وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته ، كلام تضمن من فنون المجازة وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه . . . »  
ثم انتقد الأستاذ اليازجي بعض ألفاظ في الديوان ، وعقب عليها بقوله :

« . . . على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان

لم يُنشر ديواناً واحداً مهذباً مصقولاً ، ليقدمه هدية منتقاة إلى الأديب والتأديب ، ولكن . . . ولكن الموت غاله فبطل أمه وبقى عمله تراثاً باقياً لمن يشاء أن يسدى يداً إلى العربية يتم بها صنيع الرافعي .

لم ينقطع الرافعي عن الشعر بعد تلك الفترة ولكنه لم يقتصر عليه ، وستحدث عن ديوان الرافعي الذي لم ينشر حين تحين الفرصة للحديث عن أعماله الناقصة التي لم تتم ، لحسي الآن وإلى اللقاء في الأعداد المقبلة .

محمد سعيد العريانه

« سبدي بشر »

حاشيتان :

- (١) سألتني كثير من الأصدقاء أن أترجم لهم ( خط الرافعي ) المنشور بالعدد السابق من الرسالة ، ترجمة بخط الطمعة ؛ فاليهم ما يريدون : « اللهم اجعل لي نصاً مطمئنة ، توطن بقلبي ، وتفتح بطيانتك ، وترضى بقضائك ، وتختاك حق خشيتك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . »
- وقد وجدت هذه الورقة المكتوبة بخطه بين أوراقه الخاصة على المكتب ، واملها من آخر ما كتب . رحمه الله .
- (٢) لم تنهأ لي الفرصة في هذا الأسبوع لأتفرغ شيئاً من مختارات أدب الرافعي ؛ فمغفرة وإلى اللقاء في الأسبوع الآتي .

### لجنة التأليف والترجمة والنشر

## سيرة السيد عمر مكرم

لمؤلفها الاستاذ محمد فريد أبو هرير

سيرة جلييلة من سير الزعامة الشعبية وصفحة رائمة من صحف الجهاد القومي خلال القرن الثامن عشر حتى قائمة عهد محمد علي عندما اجتمعت كلمة الشعب على اختيار ملكه المحبوب جد الأسرة الملكية الكريمة

والكتاب مزين بالصور التاريخية

ثمنه عشرة قروش عدا أجرة البريد

ويطلب من اللجنة بشارع الكرداسي رقم ٩

ومن المكاتب الشهيرة

يستحب أن يخلو منه ، لأن المرأة النقية لا تستر أدنى غبار ، ومن كملت محاسنه ظهر في جنبها أقل العيوب ؛ وما اتقدنا هذه المواضع إلاضناً بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوايب ، ورجاء أن يتنبه إلى مثلها في المنتظر ، فإن الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنه ، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن ، سيكون من الأفراد المجالين في هذا العصر ، ومن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر .

\*\*\*

بلغ الرافعي بالجزء الأول من ديوانه مبلغه الذي أراد ، واستطاع بغير عناء كبير أن يلفت إليه أنظار أديب عصره . ثم استمر على دأبه ، فأصدر في سنة ١٩٠٤ الجزء الثاني من الديوان ، وفي سنة ١٩٠٦ أخرج الجزء الثالث ، وفي سنة ١٩٠٨ الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ ومضى على سنته ، معنيا بالشعر ، متصرفاً في فنونه ، ذاهباً فيه مذاهبه ، لا يرى له هدفاً إلا أنه يبلغ منزلة من الشعر تحل اسمه بين شعراء العربية .

وتألق نجم الرافعي الشاعر ، وبرز اسمه بين عشرات الأسماء من شعراء عصره براقة تلتصق أضواؤه وترى أشعتها إلى بعيد ؛ ولقى من حفاوة الأديب ما لم يلقه إلا الأقلون من أديب هذه الأمة ، فكتب إليه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده يقول :

« . . . أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يحق

به الباطل ، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل »

وكتب المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا يقول :

« . . . وسيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس : هو

الحكمة العالية مصوغة في أجل قالب من البيان »

وكتب حافظ ، وقال البارودي ، ونظم الكاظمي ، وتحدث الأديب والشعراء ما يتحدثون عن الرافعي الشاعر . وظل هو على مذهبه ذلك حتى سنة ١٩١١ ، ثم تطورت به الحياة ، وانفعلت أعصابه بأحداث الأيام ، فانحرف عن الهدف الذي كان يري إليه من الشعر ، وتوجه وجهة جديدة في الأدب ستتحدث عنها بعد ليس كل شعر الرافعي في دواوينه ، وليس بكل ما في دواوينه

يدل على فنه وشاعريته ؛ فالجيد الذي لم ينشر من شعر الرافعي أكثر مما نشر ؛ وقد كانت في نية الرافعي لو أمهلته المنية أن يتبرع لشعراء اليوم بأكثر ما في دواوينه ، ثم يخرج منها وما